HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

مظاهر الانحراف والخلل في الفكر الإسلامي

حنان خياطي[1]

[1] باحثة متخصصة في مجال الفكر الإسلامي/المغرب

khiyatih@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/12/26م تاريخ النشر: 2021/01/01م

المستخلص

هذا البحث محاولة لتحديد العوامل الأساسية الكبرى التي تشد المسلمين إلى واقع التخلف الحضاري وتعوقهم عن التحرر ليؤولوا إلى الموقع الذي يكونون فيه على استعداد وتحفز للمضي في طريق الاستئناف الحضاري، فعوامل النهوض متوقفة على إزالة العوائق، كما أن زوال العوائق متوقفة في فعله على عوامل النهوض، فكل منهما متوقف على الآخر وليس أحدهما بكاف وحده.

الكلمات المفتاحية: العقيدة-التوحيد-الواقعية-الاستئناف الحضاري.

RESEARCH ARTICLE

MANIFESTATIONS OF DEVIATION AND DEFECT IN ISLAMIC THOUGHT

Hanan Khayati[1]

[1] Researcher specializing in the field of Islamic thought / Morocco
khiyatih@gmail.com

Accepted at 26/12/2020 **Published at 01/01/2021**

Abstract

This research is an attempt to identify the major basic factors that draw Muslims to the reality of civilized backwardness and hinder them from liberation, in order to devote themselves to the position in which they are ready and motivated to move on the path of civilized resumption, as the factors of revival are dependent on the removal of obstacles, just as the removal of obstacles depends on his action on the factors of advancement. Each of them is dependent on the other, and neither is sufficient.

Key Words: faith - monotheism - realism - civilized resumption

مقدمة:

العقيدة عنصر من عناصر الترابط في الجماعة، بل العنصر الرئيسي في ترابطها، باعتبارها ملتقى جمع وصهر وحداتها على اختلاف أصولها ومنبتها شعوبا كانت أم قبائل، وحيثما تكون العلاقة القائمة بين القيم والمؤسسات علاقة تبادلية تفاعلية وثيقة، فإنه كلما اتسقت القيم وكان تماسكها الداخلي أكبر، انعكس ذلك على المؤسسات التي تقوم عليه، فلا يستغرب أن تنبت لنا عقيدة التوحيد في كمالها القرآني، وفي خلوها من كل ما يشوب العقائد البشرية، تلك الهيئة الجماعية المنفردة في رسوخ جذور وحدتها وتأصل تماسكها في شكل "الأمة القطب" والأمة المستقطبة. (1)

وتتوفر الأمة الإسلامية على السبب الأصلي للتحضر والتقدم وهو المنظومة العقدية (المستمدة من القرآن والسنة) المتميزة بشموليتها في شرح حقيقة الوجود وحقيقة الحياة وغاياتها، أو المتميزة أيضا في نطاق ذلك الشمول بمرونتها في سبيل التنزيل على الواقع بما يتلاءم مع ظروف المكان والزمان وتلك المنظومة هي التي حفظت للأمة كيانها ولو في حال الغياب الحضاري، فقد تعرضت في تاريخها إلى ضروب من المحن القاسية لو تعرضت لها أمم أخرى ما استطاعت الصمود، ويكفي في ذلك الغزو العسكري المتلاحق من الغزو الصليبي إلى الاستعماري والغزو الثقافي ،من الغزو الفلسفي و الغنوصي طيلة القرون الأولى إلى الغزو الثقافي الغربي طيلة قرنين أو أكثر من الزمن.

فالمنظومة العقدية التي حافظت على كيان الأمة هي ذاتها القادرة على إنهاضها للاستئناف الحضاري كما كانت قادرة على إنهاضها ابتدءا للتحضر، إذ هي تحمل من مقومات الإنهاض ما ذكرناه آنفا، وما هو محفوظ لم ينله التغيير والتبديل حتى يقال انه فقد القدرة على إحداث النهضة كما هو شأن كثير من الأمم قامت حضاراتها على فكرة ما ثم فقدت تلك القوة لاشتمالها على الباطل أساسا أو لتعرضها للتحريف بمرور الزمن ،فآل أمر تلك الحضارات إلى الزوال دون أن يبقى بين يدي أهلها ما يمكن من النهوض مجددا. (2)

وإذا كان سبب التحضر الإسلامي موفورا لدى الأمة الإسلامية قائما بينها وهو المتمثل أساسا في الفكرة العقدية فإن الاستئناف الحضاري يكون موقوفا على عودة هذا السبب إلى موضع الفعل الدافع إلى انجاز التحضر ويكون بالتالي المجال الصحيح لحركات النهضة الهادفة إلى تحريك الأمة نحو الاستئناف الحضاري إنما هو تفعيل الفكرة العقدية في النفس الفردية للمسلمين وفي النفس الجماعية لعموم الأمة.

وتفعيل الفكرة العقدية في النفوس ليس بالأمر البسيط كما يبدو في الظاهر، بل هو أمر معقد ومتشعب وذو أبعاد كثيرة، لقد كان تفعيلها في الطور الحضاري الأول بعمل نبوي أعطاها دفعا فاعلا لعدة قرون، ثم جاءت الأجيال الأولى من المسلمين فعكفت على أصول الدين بالنظر الاجتهادي لفهم مدلولاتها في مختلف نواحي الحياة وصدرت من ذلك النظر بأفهام متفاعلة مع واقع الحياة التي كانت تعيشها فطورت من ذلك الواقع بما نشأت منه الحضارة الإسلامية العظيمة في وجهيها المادي والمعنوي وظلت الافهام الدينية الناشئة من النظر الاجتهادي موصولة بالواقع، متفاعلة معه، مطورة له على نحو ما نقف عليه في مؤلفات الأئمة من أهل القرون الأربعة أو الخمسة الأولى في الفقه خاصة وفي التفسير والفكر العقدي، تلك التي إذا ما وضعناها في إطارها الزمني ألفيناها تنبض حياة وتزخر بقوة الدفع نحو الأفضل بما تحل من مشاكل الواقع وتقترح من صور التطوير والتجاوز نحو الأفضل.

ولكن هذا المسار الاجتهادي الواقعي الحي أصابته بعد حين من الزمن انتكاسة أخلت بخاصية الواقعية والحيوية فيه، والأمة أصابها في عهود الغياب الحضاري من الملابسات والمضاعفات النفسية والفكرية والاجتماعية ما عقد وضعها بالنسبة لما كانت عليه في عهودها الأولى ومع ذلك فإن الاستئناف الحضاري بتفعيل الفكرة العقدية في نفوس الأمة تبقى أمرا ممكنا ولكنه

يتوقف على الجهود المتضافرة في الفهم والتحليل وأولى خطوات هذا الفهم والتحليل تكمن في وضع اليد على مكامن القصور والخلل على نحو ما سنصفه تاليا [*]:

***الخلل ومظاهر الانحراف في واقعنا المعاصر:**

أولا: انحلال مركزية التوحيد:

1-مفهوم التوحيد:إن العقيدة الإسلامية التي هي الفكرة الدافعة للتحضر تنبني على أساس التوحيد فهو عمودها الذي يقوم بها جميعا، والأركان الجامعة للتوحيد هي الإيمان بوحدانية الله تعالى ذاتا وصفات، ومبدأ في الخلق ومدبرا للكون وحاكما في حياة الناس ومعبودا لهم، ومنتهى لكل الكائنات في المصير، وبهذا المعنى فما من حقيقة من حقائق الدين الشاملة عقدية كانت أو تشريعية إلا وهي منبثقة عن التوحيد وراجعة إليه فهو روح الدين كله الساري فيه مسرى الماء من النبات أيما موضع انسحب منه أصابه الجفاف وآل إلى التلاشي.

وعقيدة هذا موقعها من الدين من شأنها أن تطبع معتنقيها في ممارستهم للحياة كلها فكرا ووجدانا وسلوكا بطابع الوحدة، بحيث يصير كل نشاط ذهني أو عملي دائرا في بنيته وغاياته على قانون من الوحدة التي تتآلف بها المختلفات وتتوحد بها المقاييس وتلتقي بها المشارب على هدف مشترك، وذلك ما يبدو نظريا منطقيا في انطباع الحياة بطابع المعتقد الأساسي، كما يبدو عمليا في تجربة التحضر الإسلامي في كل من الفكر والعمل.

ولعل ابن خلدون كان من أعمق من شرح عامل الدافع الحضاري تطبيقا له على الإيمان بفكرة التوحيد الإسلامي في كل من المستوى الفردي والجماعي.

ففي المستوى الفردي، قال في الدرجة الإيمانية التي تكون دافعة إلى الفعل الحضاري إنها " حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القبلي(بالتوحيد) وما يتبعه من العمل مسؤولية على القلب فيستتبع الجوارح، وتتدرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني [4]وفي المستوى الجماعي يتبين أثر العامل الإيماني الديني في وحدة القلوب والجهود نحو الإنشاء والتعمير فقال إن القلوب" إذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله(بالتوحيد) اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة[4].

ولما تشبع المسلمون بعقيدة التوحيد انطلقوا في حركة تحضرهم يبنون معارفهم الكونية والإنسانية بمنهج فكري توحيدي، فإذا هم يباشرون الحياة الإنسانية بنظر يفسر طبيعتها ويقدر كل تصاريفها الفردية والاجتماعية على محور موحد يبنيها على مراد الله تعالى، ويسوقها في ابتغاء مرضاته وإذا هم يباشرون المادة الكونية بنظر يفسرها على وحدة من القانون في تكوينها ومنقلباتها اهتداء بوحدة المكون والمدبر بها، ثم يضم العقل الإسلامي حصيلة النظر الثاني إلى الأول لتنشأ منهما حركة العلوم الإسلامية وتتطور منظومة يوحدها جميعا في سياق الغرض الديني الذي به نشأت وتطورت أساسا من أسس الانجاز الخلافي في الأرض، ويتبين هذا المنهج التوحيدي جليا من خلال كل من العلوم التي أنشأها المسلمون إنشاءا والعلوم التي اقتبسوها من الكسب الإنساني السابق وأدخلوها في دائرة الثقافة الإسلامية.

[*] لعل أول ما يستلزمه تفعيل الفكرة العقدية في الأمة لإحداث نهضتها هو الوقوف على واقع هذه الأمة ، وتحليل الأسباب التي تجعلها في وضع غياب حضاري، وتعيقها عن أن تنهض للاستئناف، فالعلم بهذا الواقع في أسبابه وعلله هو العامل الأول من عوامل نهضتها، إذ العلم بالمرض هو أول عناصر العلاج.

أما العلوم المنشأة فقد كان المحور الذي انتظمت عليه هو القرآن والحديث، فما من علم من علوم المقاصد والوسائل إلا وهي ناشئة بداع من القران والحديث ومبنية على أساس من خدمة الوحي فيهما وذلك ما بينه بإبداع ابن خلدون في تصنيفه للعلوم،إذ يقول في مقدمة شرح مطول للمنزع التوحيدي في العلوم الإسلامية" وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن الكريم[5].

وأما العلوم المقتبسة من الثقافات الأخرى فقد باشرها الفكر الإسلامي بنزعته التوحيدية فأعاد بناء مادتها بحيث تلتئم مع وحدة الغاية التي قامت عليها العلوم المنشأة، فإذا هي تتخذ لها بعد اقتباسها وضعا جديدا في دائرة الثقافة الإسلامية مخالفا للوضع الذي كانت عليه في ثقافاتها، فالمسلمون الأوائل انفتحوا على كثير من الحضارات دون أن تلتحق أو تندمج حضارتهم بإحدى تلك الحضارات، انفتحوا على الحضارة الهندية واخذوا حساب الهند وفلكها دون فلسفتها، وانفتحوا على الحضارة الفارسية واخذوا بعض التنظيمات والتراتيب الإدارية ولم يأخذوا عقائد الفرس ومذاهبهم وانفتحوا على الحضارة اليونانية وأخذو العلوم الطبيعية والتجريبية دون أن يأخذوا إلاهيات اليونان وأساطيرهم ووظفوا النزعة العقلية اليونانية في مواجهة (الغنوصية الباطنية) ولم يجعلوها فلسفتهم.... وانفتحوا على الرومان

فاخذوا تدوين الدواوين دون أن يأخذوا القانون الروماني [6] [†]وذلك ما بينه ابن خلدون في اقتباس المنطق اليوناني" ثم جاء المتأخرون من الباحثين الإسلاميين فغيروا اصطلاح المنطق، والحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم.... ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادته، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة [7] وما بينه أيضا في اقتباس علم الفلاحة اليوناني الذي كان مشوبا بالسحر فقال:" ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب" "كتاب الفلاحة النبطية" وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فانتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة[8] وعلى هذا النحو من المنهج التوحيدي أصبحت العلوم كلها في دائرة الثقافة الإسلامية على شاكلة من الوحدة والتآلف وصفها ابن حزم في تصنيفه للعلوم بقوله" العلوم كلها متعلق بعضها ببعض.... محتاج بعضها إلى بعض، ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة[9] وليس ذلك إلا بأثر من خاصية التوحيد التي طبع عليها الفكر الإسلامي[10] .

وعقيدة التوحيد كما تطبع الفكر بطابع الوحدة المنهجية في النظر فإنها تفعل نفس الفعل بالنسبة للعمل السلوكي بحيث يكون الاعتقاد بوحدانية الحاكم موجها لأعمال الإنسان كلها نحو ذات الوجهة، وهي ابتغاء مرضاة الله تعالى بتحقيق مراده فإذا تلك الأعمال تصدر عن الإنسان متحدة في دوافعها، متآلفة في صياغتها متكاملة في أهدافها ما كان منها فرديا وما كان جماعيا وما كان حسيا وما كان معنويا.

وهذا المنهج التوحيدي في السلوك العملي يفضي إليه الاعتقاد بأن العمل الذي يقوم به الإنسان من أجل الدين هو في ذات الوقت عمل من اجل الآخرة فعمل الدنيا وعمل الآخرة وحدة متكاملة لا تناقض فيها وهو ما بدا جليا في قوله (صلى الله عليه وسلم)

[†] وكذلك الأمر بالنسبة للحضارة الغربية عندما آلت الدورة الحضارية إليها انفتحت على الحضارة الإسلامية وأخذت العلوم التجريبية وأسس المنهج التجريبي دون أن تأخذ توحيد الإسلام ولا قيمة ولا شريعة ولا وسطيته ولا فلسفته ولا تصوره للكون(....) وقسمت فيلسوفا مثل ابن رشيد إلى قسمين: فأخذت من ابن رشد الشارح لأرسطو الذي هو تراثها ورفضت بل حاربت ابن رشد الموحد والمتكلم والقاضي والفقيه المسلم.

لأصحابه" وفي بضع أحدكم صدقة.[11] ‡

فإتيان الرجل لزوجته وهو في ظاهره عمل شديد الدنيوية، هو في ذات الوقت عمل أخروي ينال به الأجر وعلى هذا النحو تفضي عقيدة التوحيد إلى تكامل عمل الفرد وعمل الجماعة وتكامل أعمال الفكر مع أعمال الجوارح، وقد ضرب في القران الكريم مثل بديع لهذه الوحدة في العمل متأتية بتوحيد الله تعالى وذلك في قوله تعالى(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا) [12] فالرجل الذي يكون سلما لرجل، وهو المؤمن بوحدانية الله تصدر أفعاله منسجمة موحدة الوجهة غير متناقضة كأعمال ذلك الذين يكون فيه شركاء متشاكسون حيث تتعارض أعماله وتتناقض بتشاكس الشركاء فيه.

وبهذا الخلق المنهجي في الفكر والعمل انطلق المسلمون يباشرون الكون بالعمل الاستثماري استكشافا وتعميرا متوحدة فيه غاية الدنيا، وهي تحقيق المنفعة المادية وغاية الآخرة وهي تحصيل الثواب بالتعمير في الأرض.

ولكن لو تأملت اليوم الوضع الإسلامي من حيث الهيئة التي تنتظم عليها الفكرة في الأذهان لوجدت وضع مركزية التوحيد قد داخلها الاضطراب، فإذا بوحدانية الله أصبح لها موقع يساوي مواقع سائر الصور والأفكار الجزئية، فهي قد تزحزحت عن مركز الإشراف لتحتل ركنا في الذهن مستقلا بنفسه فلا تكون ممتدة إلى سائر الأركان الأخرى، إن حقيقة التوحيد اليوم كما هي عند عامة المسلمين فكرة مجردة تكاد تتمخض لصورة الذات الإلهية المتفردة بصفة الإلوهية نافية في الأذهان تعددية الإله وواقفة عند ذلك الحد في الفعالية والتأثير.

وفي هذا الوضع الذي انحلت فيه مركزية التوحيد أصبحت الفكرة لا ينتضمها ناضم ولا يربطها رابط موحد، لقد غاب من الفكرة الإسلامية في عقول أفراد الأمة اليوم الجهاز المركزي الذي ينظم كل الصور والأفكار والرؤى ويشرف عليها ويوجهها وهو المتمثل في حقيقة التوحيد فغذت هذه الفكرة شتاتا، علاقة عناصرها ببعض علاقة التجاور المعرفي لا علاقة الترابط والاتساق التي تسلك الجميع نحو الغاية الموحدة وتحشد الكل نحو الوجهة المشتركة ، لقد قصرت الفكرة التي تعمر عقل الأمة اليوم عن أن تمتد بوعي إلى غاية تحقيق الخلافة في الأرض خلافة تقوم على العبودية لله وممثلة في الترقية الدؤوب للإنسان فردا ومجتمعا في مضمار الروح فضيلة وعلما وحرية وعدلا.

وفي مجال المادة تنعما بالطيبات وانتفاعا بمرافق الكون كل ذلك في نطاق إنساني عام يحدده معنى الشهادة على الناس وكل ذلك أيضا في وجهة خطها مستقيم ونهايتها الله تعالى فيما يحقق رضاه.

وهذا الخلل البين في رؤية الكثير من المسلمين للغاية من حياتهم أدى إلى إحداث ازدواجية في الرؤية بين غاية الحياة في الدنيا وبين غاية الحياة في الآخرة، فإذا هم يرون أن الغايتين متناقضتين وإذا هم يقدرون أن الغاية في الآخرة وهي تحصيل النجاة لا تكون إلا باعتزال الدنيا والزهد فيها وإلغاء العمل فيها تعميرا للأرض وشهادة على الناس إن هذا القصور في التصور لغاية الحياة بعيد تماما عن تلك الصورة الحقيقية التي جاءت بها تعاليم الدين والتي حملتها أجيال الشهود الحضاري إنها تلك الغاية التي جاءت في قوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾[13].وهي الغاية التي كانت تتشبع بها رؤية ذلك الأعرابي. الذي آمن بالنبي وأتباعه " فلما كادت غزاة غنم النبي(صلى الله عليه وسلم) شيئا، فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قال قسم قسم لك النبي، فأخذه فجاء به النبي فقال: ما هذا قال: قسمته

‡ تكامل الغيب والشهادة إطار للإجابة عن التساؤلات الكبرى، أصل الوجود غاية الإنسان، دور العقل، حيث تكامل الوحي والعقل في توجيه مسيرة الإنسان، الوحي يمد العقل بالمعرفة الكلية والغايات الربانية، والعقل بهذا النور ينصرف إلى عالم الشهادة وشؤون الحياة والكائنات على أساس ما أودع الله فيها من سنن ونواميس تحقيقا لمعنى الخلافة.

لك، قال، ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة...) [14].

لقد استوعب غاية الحياة وهي غاية تبتدئ بنصرة القيم التي اتبع عليها النبي (ص) وهي قيم الحرية والعدل وإنقاذ الإنسان من الغلال والاستعباد ثم تنتهي بتعميم الجنة في الآخرة.

وتلك الغاية هي نفسها أيضا التي أفصح عنها (ربعي بن عامر) لما قال كلمته الشهيرة التي حدد فيها المهمة التي تملأ كيانه ومن معه من المسلمين، من أنها إنقاذ البشرية من جور العباد وظلمهم إلى الحرية بعبادة الله وحده وإنقاذهم من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة. [15]

وضوح في الرؤية الفكرية لغاية الحياة يبين لنا مدى الخلل في الرؤية التي يحملها عامة المسلمين اليوم والتي بان فيها القصور جليا ولذلك كانت آثاره البالغة في الإعاقة عن النهضة والشهود الحضاري من جديد.

إن المسلمين في واقعهم يعيشون على الإيمان بالعقيدة الإسلامية في مجملها وبذلك هم مسلمون، ولكن هذه العقيدة أصابها من الغبش في التصور ما خف به وزنها في النفوس.

فلم يعد يقوى على أن يكيفها بحيث يصبح الإيمان بالعقيدة نافذا من التصور إلى الجوارح ومحركا بما ينبعث من النفس من عزم يدفع تلك الجوارح كي تنطلق لتنجز مقتضيات العقيدة النظرية إعمالا في الواقع وتعميرا في الأرض وترقية للفرد والمجتمع في سلم الفضيلة والعلم فآل الأمر إذن بالعقيدة الإسلامية، في واقع المسلمين، إلى ما وصفه الشيخ ابن عاشور من أنها" تعمر بها قلوبهم وتشهد عليها ألسنتهم ولكنها لا تتجاوز القلوب والحناجر إلى الأعضاء والجوارح" [16] إشارة في ذلك إلى ما أصاب الإرادة الإسلامية التي من شأن العقيدة أن تبعثها في النفوس من خلل عطل الأعمال، وأعاق عن حركة الانجاز_

ثانيا: اختلال منهج الواقعية:

الزهد في النظر الواقعي:

نقصد بالواقعية في هذا السياق اعتبار الواقع المادي والواقع الإنساني عنصرا أساسيا في صياغة مشاريع النهضة وتطبيقها بحيث يقع الانطلاق منه في بناء الصياغة أساسا كما يقع الرجوع إليه باستمرار في تعديل تلك الصياغة وتحسينها وفي تطبيقها الفعلي، كما نقصد باختلال الواقعية في هذا السياق أيضا إهمال هذا الواقع إهمالا كليا أو جزئيا عند صياغة المشروع الإصلاحي وتطبيقه والاكتفاء في ذلك كليا أو جزئيا بصياغة نظرية تتعامل مع التصورات الذهنية وتتخذها منطلقا أساسيا بعيدا عن معطيات وعناصر الواقع الذي يراد علاجه.

ولا يخفى أن القران الكريم والحديث النبوي قد احدثا في العقول ثورة منهجية في المعرفة خصوصا وفي البناء الثقافي عموما فبعد ما كانت الثقافة العالمية بوجه عام تتطبع بالطابع التجريدي إذ تسيطر عليها الفلسفة اليونانية بتجريدها العقلي والفلسفة الغنوصية بتجريديها الروحي وجه الإسلام العقول إلى العالم المحسوس متمثلا في آيات الكون وفي حياة الناس وجعله مصدرا للمعرفة ومنطلقا أساسيا في بناء الإصلاح وتكونت من ذلك ثقافة جديدة ينطلق فيها العقل الإسلامي في مشروع التحضر صياغة وتطبيقا من واقع المادة وواقع الإنسان وهو ما ظهر جليا في المنهج التجريبي للعلوم الكونية وفي المنهج الواقعي للعلوم الفقهية والعقدية وهو ما دفع بالتحضر إلى أوج الازدهار.

وبعد تطورات عبر التاريخ الإسلامي، انتهى الوضع بالمسلمين اليوم بل ومنذ زمن بعيد في هذا الشأن إلى اختلال في هذه

الواقعية كطريقة منهجية في الفكر والسلوك فيما يمارسون من تفكير لبناء تصورات الإصلاح وفيما يمارسون من سلوك لتنفيذها.

والمتأمل للمنهج العام الذي ينتهجه المسلمون في معالجة الفكرة التي يحملونها، ليشتقوا منها خططا عملية لتصريف شؤون حياتهم وفي التطبيق الفعلي لتلك الخطط فانك تتبين لا محالة أن ذلك المنهج يميل بصفة جلية إلى التغاضي عن الواقع الذي تجري به الحياة الإسلامية والى صناعة صور إصلاحية لتقويمه في معزل عنه، ودون اخذ بحقائقه ومعطياته إلا في شيء قليل ثم تنزيل تلك الصور عليه بصفة قسرية في الغالب لا تراعي حقائقه ومعطياته أيضا، فإذا حصيلة ذلك كله اتصاف هذه المنهجية باختلال بين في صفة الواقعية وبنزوع إلى المثالية المجردة في محاولة الدفع إلى النهوض ويبدو ذلك الاختلال في الواقعية في مظاهر عدة تنتهي كلها إلى إحداث أثر سلبي يساهم في الإعاقة عن الاستئناف الحضاري.

والواقع أن شقا كبيرا من المسلمين ترسب في أذهانهم فكرة ان الواقع المحسوس من مظاهر الكون ومن حياة الناس وهو واقع مردود لأنه من مظاهر الدنيا الممقوتة، فينبغي إذن الزهد فيه ما أمكن، والفرار منه إلى العمل الأخروي الذي لا يمر من خلال الواقع وإنما من خلال الزهد فيه وقد ظل هذا المفهوم الصوفي يحتل مساحة هامة من عقول المسلمين بصفة واعية حينا وبصفة غير واعية أحيانا، ومن شواهده البينة ما يحظى به من احترام وإجلال في الضمير الشعبي أولئك الزهاد في الدنيا المبتعدون عن واقع الكون والحياة في مقابل أولئك الذين يقتحمون ذلك الواقع بالعلم والتعليم حتى وان كانوا على نفس الدرجة من التقوى أو أكثر.

بالإضافة إلى هذا المنزع الزهدي في الواقع من منطلق عقدي مغلوط، فقد حدث أيضا عند شق آخر كبير من المسلمين منزع من العزوف عن الواقع من منطلق آخر ترفعي ذلك أنه منذ بعض الوقت تكونت في الأمة الإسلامية طبقة ثقافية تشتمل على طبقة الأميين وهم الغالبية وطبقة المتعلمين، إما تعلما تقليديا أو تعليما عصريا، وقد انتهى الأمر بالطبقة الثانية لأسباب يعود بعض منها إلى السياسة الاستعمارية، إلى ثقافة نخبوية متعالية عن الواقع الأعم للأمة الذي يصنعه ويمثله الجم الغفير من الطبقات الشعبية فيها، وتطورت تلك الثقافة إلى ضرب من الانعزال عن واقع الحياة العامة انعزالا بدا ماديا، في الانعزال السكني في أحياء خاصة متميزة وبدا فكريا في الانعزال عن واقع الأمة في مجريات همومه ومشاكله وعناصره المحركة له، ولك أن تلحظ هذا الضرب من الزهد في الواقع بالترفع عليه في النخب الثقافية المبثوثة اليوم في العالم الإسلامي ممثلة في أحزاب سياسية أو في اتجاهات ثقافية وأدبية أو في جماعات وظيفية، فإن هؤلاء في واد وما يجري في الواقع العريض لحياة الأمة في واد آخر فهو زهد ترفعي يوازي ذلك الزهد العقدي المغلوط[17].

وربما لحق بهذين المظهرين للزهد في الواقع مظهر ثالث، يتمثل في أولئك الذين هالهم ما عليه واقع المسلمين من الفساد والانحراف فرفضوه رفضا إجماليا وصرفوا النظر عنه في يأس باعتباره شرا كله، ينبغي هجرانه والابتعاد عنه، وهذا موقف انتهت إليه جماعات من منطلق ديني بحسب تصورها وهي الجماعات المغاليه في تحريم الواقع بميزان ديني، كما انتهت إليه جماعات أخرى من منطلق غربي، وهي الجماعات المغالية في رفضه بميزان التقدمية والتحررية وما شابه ذلك من الشعارات.

وقد التقت هذه المظاهر كلها رغم تغير منطلقاتها على موقف مشترك في الابتعاد عن واقع الحياة الإسلامية ابتعادا حسيا ونفسيا وهو موقف أفضى بعد ذلك إلى الابتعاد عنه ابتعادا دراسيا معرفيا، إن الاهتمام المعرفي بهذا الواقع ينحط في الثقافة الإسلامية الراهنة إلى درجات بعيدة وهو ما تمثل جليا في ذلك الفقر المدقع الذي تعانيه المكتبة الإسلامية اليوم من الدراسات الواقعية لحياة المسلمين اجتماعيا وثقافيا وسياسيا وديمغرافيا، بحيث تصف ذلك الواقع وتحلل عناصره، وتبين أسبابه وملابساته، حتى أن المحتاج إلى علم في ذلك يجد انه لا مناص له من أن يرجع إلى بحوث ودراسات أنتجها الفكر الغربي، الذي توجه إلى واقع الحياة الإسلامية بالدرس الشامل والعميق، حتى أصبح أهل الغرب يعلمون عن الأحوال الواقعية للمسلمين أكثر مما يعلم المسلمون أنفسهم عن أنفسهم، وقد

كانت سنة الفكر الإسلامي على عهد الشهود، التوجه إلى الواقع بالنظر والدرس وجعله منطلقا للعلم ومنطلقا بالتالي للإصلاح والتقدم.

وكما يزهد المسلمون اليوم في واقع حياتهم فلا يتوجهون إليه بالنظر والدرس فإنهم يزهدون أيضا وبدرجة اكبر في الواقع الإنساني العام أن يجعلوه موضع نظرهم الوصفي التحليلي، والملتفت منهم إلى ذلك الواقع، إنما هو ملتفت إليه من خلال ما أنتج أهله من بحوث ودراسات فيه لا بصفة أصلية مباشرة، على أن ذلك لا يعدو الحالات الفردية ليصبح اهتماما عاما يدل على خاصية منهجية، هذا وقد كان الفكر الإسلامي في عهد الشهود الحضاري حريصا على الوقوف بالعلم التفصيلي على واقع الأمم والشعوب المعاصرة ومكوناتها الثقافية والاجتماعية(*) تنبيها إلى أن الواقع الإنساني العام هو اليوم أقوى بكثير في تفاعله مع الواقع الإسلامي وتأثيره فيه، من الواقع الإنساني القديم بالنسبة للواقع الإسلامي على عهد الازدهار الحضاري.

إنه إذن مظهر منهجي يتمثل في عزوف الفكر الإسلامي الراهن عن الدراسة الواقعية للحياة الإسلامية خصوصا والحياة الإنسانية عموما دراسة تعتمد النظر الوصفي والتحليلي العميق، والاستعاضة عن ذلك بالنظرة الجميلة ذات المنزع التقديري الذي يصل مباشرة إلى الرفض العام دون الوقوف العلمي على التفاصيل والأسباب وهو خلل بين في صفة الواقعية باعتبارها منهجية تفكير وسلوك تداعت منه عوائق ومشاكل أخرى ذهبت في نقص الواقعية إلى ما هو أبعد من العزوف عن النظر في الواقع.

خاتمة:

لقد بينا في هذا البحث، كيف أن اختلال العقيدة في الأذهان في مظاهر مختلفة أبرزها مظهرين ثم التركيز عليهما، وهما انحلال مركزية التوحيد ثم اختلال الواقعية كان عامل إعاقة عن النهضة وذلك معناه أن تحمل الأمة للعقيدة الإسلامية لم يكن على الوجه الذي تكون به هذه العقيدة في موقع الدفع، فظلت عاجزة عن النهوض وذلك يعني أن النهوض الحضاري يتوقف بدرجة أساسية على الإصلاح من كيفية تحمل الأمة لعقيدتها حتى يرتقي ذلك التحمل إلى الدرجة التي تصبح فيها العقيدة في موقع الدفع الحضاري. والإصلاح من كيفية تحمل العقيدة يكون بنظر اجتهادي مستأنف لفهم الدين فيما يراد به معالجة الواقع وهو نظر يلتزم ضرورة فحص التراث واستيعاب ما ورد فيه من أفهام ثرية، ولكنه التزام استفادة واسترشاد واهتداء وليس التزام إتباع وتقليد لأفهام السابقين على سبيل الحكم المفروض، فإن ذلك لا يبرره شرع ولا ينصلح به واقع وهذا ما سنوضحه تاليا في بحوث قادمة.

* يكفي على ذلك شاهدا ذلك الثرات الثري من أدب الرحلة الذي يغطي بالوصف والتحليل الواقع الإسلامي العريض على تلك العهود، وأيضا ما درسه الغزالي من الفكر الفلسفي اليوناني أو ما درس البيروني من الواقع الثقافي والاجتماعي للهند في كتابه الشهير (تحقيق ما للهند من مقولة ...).

قائمة المصادر والمراجع:

(1) منى عبد المنعم أبو الفضل، الأمة القطب، نحو تأصيل منهجي لمفهوم الأمة في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1417هـ/ 1996م، ص 34-35.

(2) عبد المجيد عمر النجار، عوامل الشهود الحضاري. دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006. الجزء 2 ص 9.

(3) ابن خلدون- المقدمة دار الفكر، 2003/1423 بيروت.ص 426.

(4) نفسه، ص 424.

(5) نفسه، ص 401 أنظر أيضا طاش كبرى زاده مفتاح السعادة، طبعة حيدر أباد، ج 2 ص 2، ج 5 ص598 .

(6) محمد عمارة (تعقيب في ندوة الحوار القومي الديني ، مركز دراسات الوحدة العربية. سنة 2003.ص 183.

(7) ابن خلدون المقدمة، ص 463 " وإنما حذفت هذه الكتب الخمسة لأنها لا تؤدي إلى الحقيقة في ذاتها بل تستهدف الإقناع ولو بالخطأ

(8) نفسه، ص 465.

(9) ابن حزم رسالة العلوم تحقيق إحسان عباس، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1980،1983. ص 90.

(10) عبد المجيد عمر النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي بيروت دار الغرب الإسلامي 1989 . ص 66

(11) أخرجه أبوا مسلم في الزكاة باب اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ،راجع جامع الأصول 560/9

(12) سورة الزمر الآية 29.

(13) الأنعام ص 162

(14) أخرجه النسائي في الجنائز باب الصلاة على الشهداء راجع ابن الأثير جامع الأصول 586/2..

(15) أخرجه الطبراني، التاريخ، ط 2 دار المعارف 1967. ج3 ص 520.

(16) ابن عاشور روح الحضارة الإسلامية ضبطها وقدم لها عمر عبيد حسنة،هيرندن المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1992. ص76.

(17) راجع في هذا المعنى مقالا ذا دلالة هامة لمحمد جابر الأنصاري ، ألقاها في مؤتمر النقاد العرب بالبحرين(جريدة الخليج الإماراتية عدد 5089) بتاريخ 7 ابريل 1993.